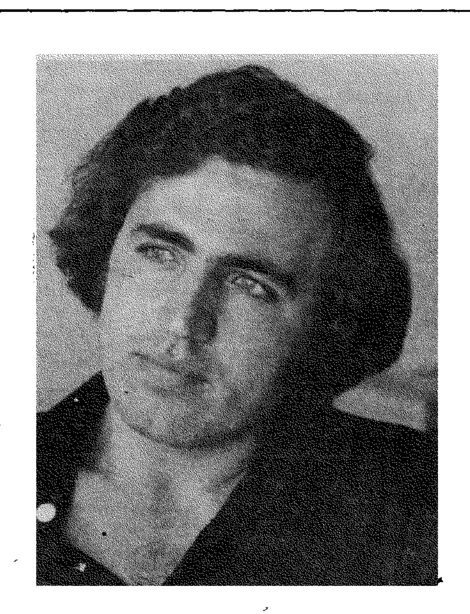
شوقي بزيع

نطالب الآداب بالمزيد



لعلها أكثر من مصادفة أن يتوافق ظهور « الآداب » في مطلع الخمسينات مع انبثاق ثورة ٢٣ يوليو في مصر وبداية النهوض العربي القومي بشكل عـام . وبما ان التاريخ ليس أعمى وأحداثه لا تخضـع لمنطق الصدفة العشوائية فلا بد لنا من أن نكتشف علامات هذا التوافق وأسبابـه .

لقد أسهمت الحرب العالمية الثانية في تغيير العالم وقلب موازينه السياسية والاقتصادية والفكريـة . كان هناك عالم يتداعى وينهار وعالم يخرج الى الوجـود ، كما كانت هناك قيم تسقط وقيم في طريقها الـى الولادة . وبنهوض البورجوازية الغربية ورسوخها كان البحث عن صيغ اكثر تطورا في الفن والسياسة يشق طريقه وسط أنقاض الجيل القديم وخراب عالمه .

في ذلك الوقت كـانت البورجوازية العربية في طريقها الى التكون ، وكان عليها أن تواجه مهام البنـاء الاجتماعي في الداخل ومهام التحرر الوطني من الاستعمار في الخارج . كـان العرب يواجهون معركـة وجودهم واستقلالهم ، وكان العامل القومي حاسما ضمن أي توجه نحو التغيير . ولم تكن المسألة القومية في الغرب شبيهة بنظيرتها عند العرب ، ففي حين ارتدت الاولى أشكالا من التعصب الشوفيني والهيمنة محاولة أن تتوسع عـلى حساب الشعوب الضعيفة والمتخلفة كان الشعور القومي عند العرب مساحة من الامل بالمستقبل تحاول أن تواجه تحديات الواقع وتخوض صراعـا مرا ضد الامبرياليـة والصهيونية .

ولقد وعت « الآداب » هذه المسألة بعمق واتخذت منها موقفا متفهما وواعيا مؤيدة حركة النهـوض العربي ومجمل الثورات التي أسهمت فـي بعث هذا النهـوض وتثبيتـه .

ومن هنا نفهم أيضا سر احتضان « الآداب » لحركة الشعر العربي الحـديث التي كانت استجـابة لنهوض البورجوازية العربية وضرورة استنباط اشكال في السلوك والفن مناقضة للمفاهيم الاقطاعية والمتخلفة والتي كـانت سائدة آنذاك .

ولقـد خـاض الشعراء الرواد عبر مجلتهم صراعا مريرا ضد التقليد مواجهين حملة من الانهامات والافتراءات من القوى المحافظة ، وكان « للآداب » اثر هام في دفـع مسيرة الحداثة الى الامام وتكريس الشعر الحديث كشكل من اشكال التعبير لا عودة عنه . كما اتيح للكثيـر مـن شعرائنا الكبار أمثال السياب والبياتي والحيدري ونازك الملائكة واحمد عبدالمعطي حجازي والفيتوري وعبد الصبور أن يجدوا في « الآداب » متراسا متقـدما من متاريس الدفاع عن شعرهم الجديد ، في حين كانت « الآداب » تفتح صدرها لكل الكتابات النقدية المدافعة عن هذا الخط والمناهضة له في آن واحد ، مؤمنة بأن التغيير هو وليد الصراع ، وبأن هذا الصراع لا بد وأن يؤدي في النهايـة الى تثبيت المفاهيم الاكثر تقدمـا ضمن الصراع نفسـه .

ولم تترك « الآداب » في ربع القرن الاخير مناسبة أو حدثا سياسيا عربيا الا وكان لها موقف منـه . وهكذا كانت شهادة على عصر عربي متفجر بدءا من ثورة يوليو مرورا بحرب السويس وتجربتي الوحـدة والانفصال وحرب الجزائر وحربي حزيران وتشرين انتهاء بالاحداث الاخيرة في لبنان . كان للمجلة في كل هذه المناسبـات وفي أقسى الظروف مواقف شجاعة وحازمة كما كانت جريئة في المواجهة والتصدي .

وفي حين كانت «الآداب» تشق طريقها نحو الحداثة بخطى ثابتة كانت تدرك بأن موقف أية أمة من تراثها هو علامة تطورها أو تخلفها ، وهذا التراث ليس عبئا ثقيـلا

كما تصوّرته بعض المجلات الاخرى ولا تركة يجب التخلص منهـا بحيث جاء رفضها للتراث رفضا للـذات العربيـة نفسها ومحاولة للسير في الفراغ . كان مفهـوم الرفض عند « الآداب » ايجابيا وواعيا ، فلقد فهمت رفض التراث على انه رفض للساقط منه ، محاولة أن تتجاوز هـذا التراث وتضيف اليه بدلا من قتله واعدامه . وكانت تؤمن ان في التراث عناصر فاعلة ومضيئة يجب الاستناد اليها والانطلاق منها في أية عملية تغيير محتملة . ولقد أملى هذا الموقف على « الآداب » التزامها القومي وشعورهـا بدورها التاريخي الذي يجب أن تلعبه في بناء الثقـافة العربية الجديدة .

في ذلك الوقت كانت مجلة « شعر » التي لا ننكر دورها الفعال في تثبيت الحداثة تحاول أن تقفز فـوق الواقع وتلبس قماشة للتغيير لا تتنـاسب مع طبيعة الجسم العربي آنذاك . كانت هذه المجلة تستعير التجديد ولا تبتكره ، متأثرة بالثقافة الغربية التي اعتبرتها اساسا للمعرفة ورمزا لها في أول موسم للهجرة نحـو الشمال على حد تعبير الطيب صالح . ولم يكن ذلك صدفـة ولا عرضا ، ولكن شروط هذه المسألة كانت تتحقق في الواقع مع تبعية عـدد من البورجوازيات العربيـة للسيطرة الامبريالية وخضوعها لمنطق البورجوازية الغربية وهيمنتها على المستويين الاقتصادي والايديولوجي .

ولم يكن القـارىء العربي ليميز كثيرا بين ما هو مترجم في المجلة وما هو موضوع بالعربية أصلا ، اذ فقدت اللغة شحناتها الحية وبعدت المسافة بين الدال والمدلول وغرقت الجمل في جليد الذهنية والتداعـي . غير اننا لا ننكر بالمقابل ما قامت به مجلة « شعر » من جهود وافرة في ترجماتها المختلفة وتعريفنا بالتالي على الآداب الاخرى.

كما لا ننكر أن بعضا من المـواهب الكبيرة قـد تفتحت براعمها في هذه المجلة وكان لها شأن فـي الشعر العربي اللاحق . وجاءت « حوار » بعد ذلك فكانت أمينة لخط سابقتها متورطة اكثر مع بعض الـدوائر السياسيـة المشبوهـة .

لقد تبنت « الآداب » منذ تأسيسهـا خطا فنيا حافظت عليه دائما الا وهو الحذر والاتزان ، ولذلك فهي لم تبالغ في اطلاق مسألة الشكل الفنـي حتى نهاياتها ، في حين كانت « مواقف » مع مطلـع السبعينات تغامر اكثر في هذا المضمار وتقدم عـددا كبيرا من الاسماء الجديدة التي تقف جميعها تحت لافتة الانفجار .

كانت « مواقف » استمرارا لمـا بدات به « شعر » على المستوى الفني ولكنها كانت على المستوى السياسي اكثر وعيا لدورها التاريخي واكثر فهما لمستلزمات المرحلة، الا ان المنزلق الذي وقعت فيه المجلة هو انها كانت اكبر من كتّابها ، وكانت الاسماء فيهـا مجرد اشارات عابرة ضمن قصيدة طويلة واحدة كان بطلها أدونيس ، أو عـلى الاقل الروح الادونيسية . ذلك لان المجـلة كانت تعدّ شعراءها أصلا لخدمة الخط الادونيسي والذي يطمح الى تأسيس كتابة جديدة وفقا لوهم خاص قائم على الانقطاع التام بين ما هو في الواقع وما هو في الذهن .

ونستطيع أن نعتبر أن فترة ما بعد حزيران كـانت فترة تراجع قومي في نفس الوقت الذي كانت فيه فترة تراجع « للآداب » . وليس صدفـة ان تنمو « الآداب » مع نمو المرحلة القومية وتنحسر بانحسارهـا ، ذلك لان المجلة قد أقامت منطقها الخـاص ضمـن دائرة المنطق البورجوازي نفسه ، تاركة لهذا المنطق أن يصطدم بواقع قصور هذه الطبقة عن انجاز مهامهـا الوطنية كاملة . ولكن ذلك لم يمنع المجلة مـن الاستمرار والقيام بأعباء

جديدة فرضتها معارك الدفاع عن الحريات في الفترة الاخيرة . وبقدر ما كانت « الآداب » تزيد من مواجهتها لقوانين التحجر وتقييد الفكر بقدر ما كانت تتعرض للمنع والمصادرة في دول عربية عديدة . ولقد خاضت المجلة معركة الديموقراطية في اكثر من دولة عربية بينها لبنان ومصر والبحرين .

كما حملت المجلة مسؤولية التصدي بشجاعة لكل اشكال القمع والارهاب الايديولوجي ، وعبرت عن ذلك في معظم المؤتمرات الادبية التي عقدت في الآونة الاخيرة ومن بينها مؤتمر الادباء العرب الذي عقد في تونس عام ١٩٧٣ .

واذا كنا قد شددنا على الدور الايجابي الذي لعبته « الآداب » عبر مسيرتها الطويلة وتحملها لاعباء فكرية جسيمة فلا بد و « الآداب » تقف على أبواب عامها السادس والعشرين من أن نلقي ضوءا على بعض الثغرات التي تعاني منها المجلة وان كانت هذه الثغرات طبيعية عند من يعمل وخاصة في مجال خطير كالفكر .

اذا كان التعايش بين الجديد والسائد يبدو أمرا مقبولا مع بدايات التجديد في الخمسينات وضمن عملية الصراع الفكري في ذلك الوقت ، فان هذا التعايش في فترة متأخرة مسألة تدعو لاعادة النظر . واذا كنا نقرأ على صفحات « الآداب » في الخمسينات القصيدة العمودية التقليدية الى جانب القصيدة الحديثة دون ان نحس بالغرابة ، فان هذه المسألة تبدو غير طبيعية في السبعينات لانها تدل على التردد في مسيرة التجديد أو الحذر من اكمال هذه المسيرة حتى ولو لم يرد أصحابها ذلك . ان على المجلة ان تعمق التناقض بين الاشكال السائدة والاشكال التي يجب ان تسود لا أن تقيم مصالحة بين الطرفين ، لانها بذلك تعيق شروط النمو الابداعي وتمنعه من الاستمرار . ونحن بذلك لا ندعو المجلة الى أن تحذو حذو سواها من المجلات في خوض المغامرات اللامسؤولة والوصول الى حالة اللاالفة او الهذيان التدميري ، ولكننا نريد منها أن لا تحذر من أن تضم بين صفحاتها المزيد من التجارب والانماط الفنية كقصيدة النثر وسواها من الاشكال الحديثة . فالشعر الحديث لا يزال تجريبيا بمعظمه ولم تتحدد أصوله النهائية حتى الان ، ولذلك فان التجارب الجديدة يمكن لها ان تغني هذا الشعر وتدفعه الى الامام .

لذلك نتمنى على المجلة أن تكون اكثر جذرية في عملية المواجهة الثقافية التي تبدو اليوم اكثر حدة من ذي قبل ضمن الدور الخطير الذي تلعبه الثقافة في المواجهة السياسية والحضارية التي نخوضها اليوم .

أن تداخل الانماط الفنية والايديولوجية في عالمنا العربي هو نتاج طبيعي لتداخل أنماط الانتاج الراسمالية والمتخلفة مما يدفع هذه التيارات المتناقضة للتعايش بشكل مدهش .

ودور مجلاتنا الطليعية لا يجب ان يكون تكريسا لهذا التعايش بل يجب أن يكون حسما لهذه المسألة باستبعاد ما هو تقليدي وهامشي وتكريس ما هو فاعل ومتطور . ان على « الآداب » أن تعيد النظر في قبولها لبعض الكتابات الرديئة والاقلام المتخلفة التي لا تخدم المجله او الثقافة في شيء ، كما ان عليها أن تركز اكثر على عملية النقد عبر اجتذابها للاقلام النقدية الهامة خاصة وان المجلة قد استقطبت في السابق أهم عباقرة النقد في الخمسينات والستينات ، وأصدرت أعدادا خاصة كانت اشارات بارزة ضمن تطور الشعر والنقد العربيين ، وحسبنا أن نشير هنا الى عدد « الآداب » الممتاز الصادر عام ١٩٦٦ .

هناك مسألة ثانية يجب تناولها بموضوعية تامة ، وهي مسألة الاعداد الوثائقية التي تصدرها « الآداب » بعد كل حدث سياسي او عسكري بارز ، وهذه الاعداد تأخذ غالبا طابعا تسجيليا وتاريخيا محضا ، نذكر على سبيل المثال الاعداد الخاصة التي صدرت بعد حزيران وتشرين واثناء أحداث لبنان . ان محصلة هذه الاعداد كانت رديئة ومتخلفة (عدا بعض الالتماعات هنا وهناك) وكانت ردود فعل سطحية قاصرة عن بلوغ الفعل نفسه اهمية وتأثيرا . ان هناك مسافة بين الحدث في الواقع وبين الاستجابة للحدث على مستوى الفن . هذه المسافة لا بد منها لانها الفراغ الذي يمنح الرؤيا والعازل الذي يمنع التماثل . لهذا فان الكتابة العميقة عن الظاهرة التاريخية غالبا ما تتأخر عن الظاهرة نفسها أعواما عديدة . ومن هنا نستطيع ان نفسر رداءة القصائد والقصص التي كتبت بعد حربي حزيران وتشرين مباشرة، ففي حين غرقت الاولى في التفجع والندب سقطت الثانية في تفاؤل مصطنع دون أن تجد كل هذه الكتابات مرتكزا عميقا لها في الواقع وان تدخل في خلايا الحدث ونسيجه الباطني . والمجلة الادبية لا يجب أن تغلب المعايير السياسية على الفنية لان شروط الانتصار في الفن ليست نفسها شروط الانتصار في السياسة ، وعلى الفن ان يستكمل أدواته الفنية وشروط تكوينه قبل أي شيء آخر.

ورغم ان « الآداب » لم تغفل النتاج الادبي في العالم ولا الترجمات الادبية ، الا انها تشكو من نقص في هذا المجال ، وهي مدعوة للمزيد من الانفتاح على آداب العالم وخاصة الثورية منها والتي تسهم في اغناء الذاكرة العربية وتوسيعها . نطلب ذلك ونحن نعلم ان « الآداب » ليست مؤسسة رسمية ولا تضرب بسيف اية سلطة ، ولكن من يتصدى للمهمات الجسام عليه أن يبذل الكثير والكثير .

ان ما تقدم ليس اكثر من اشارات عابرة حاولت أن ترسم الخطوط العريضة لدور « الآداب » التاريخي . والدور العظيم هو برسم المؤسسات العظيمة ، ولهذا فنحن نشكر « الآداب » بقدر ما نطلب منها المزيد .